

خطاب صاحب الجلالة

بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها المسلمون :

في مثل هذا الليلة المباركة السعيدة، منذ أربعة عشر قرناً، وصل الله الأرض بالملأ الأعلى، فتنزلت الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، وبدأ الحق سبحانه يوحي إلى نبيه المصطفى المختار، آيات قرآنه، ومعجز بيانه، مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فكان هذا الحدث العظيم، الذي تحتفل به الشعوب المؤمنة بالاسلام، المطمئنة بثلج اليقين المتمسكة بهدى المبين، احتفالا يصل الحاضر بالماضي، ويؤكد الدلالة على رسوخ العقيدة، ويصدق قوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون» وإذا كان احتفال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بهذه الذكرى، يرمز إلى بقاء هذه الصلة واستحكامها، وإلى تمكن العقيدة الاسلامية من نفوس المسلمين الأوفياء لدينهم المخلصين للمبادىء السامية، والقيم المثلى التي شرعها هذا الدين الحنيف وإلى خلود الذكر الحكيم ودوامه أبد الآبدين، فإنه بالاضافة إلى هذا كله برهان على ما للمسلمين كافة والمؤمنين أجمعين من إدراك لعظمة الحدث الذي فرق بين عهدين، وفصل بين عصرين، وأقام بنيان الدنيا على أساس جديد، وخلق من الأمجاد ما هو مؤثل ومديد.

لقد نزل القرآن الكريم، على النبي العظيم، فأشرق النور مبدداً للظلام وانتصر العلم على الجهل وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، والعدل من البغي، وكان للدعوة الاسلامية التي أطاحت بالأوضاع المدخولة، وقومت الاعوجاج والزيغ، واستأصلت الفساد، وقوضت أركان الطغيان، كان لها الدوى الذي تجاوز حدود الجزيرة العربية إلى ما حولها، والأثر البليغ الذي امتد إلى أقطار وأقطار، وسرى في شعوب وشعوب، فانتشر الاسلام وشاع، ونبه شأن المسلمين وهبت ريحهم وطار صيتهم وذاع، فلم يلبث وجه المعمور بما كان لهذه الدعوة السامية والرسالة الخالدة من مفعول ومضاعفات وتحولات، أن تبدلت ملامحه، وتجددت سيماه وتقاسيمه، فبرزت الدنيا في ثوب غض قشيب، واهاب ناضر عجيب، ولم تمض إلا أعوام معدودة على إتمام الدعوة والتبليغ، وكمال الوحي والتنزيل، حتى أعلا الله كلمة الاسلام والمسلمين، وفتح فتحه المبين، ومكن للمؤمنين في طول الأرض وعرضها، فخلفت الدولة الاسلامية الناشئة دولا كان لها قبل انتشار الاسلام شأن في الدنيا عظيم، وجاه واسع، وكلمة مسموعة، وأمر نافذ مطاع، فامتدت بامتداد الدعوة المحمدية أسباب سلم إسلامية، دعائمها أمثل المبادىء، وأسمى القيم، وأفضل المقاصد والأهداف، وقامت على تعاليم الدين الحنيف أركان حضارة، أضاءت بنورها أرجاء الشرق والغرب ووثبت بالانسانية الوثبة الميمونة نحو الرقي والازدهار في مختلف الميادين وجميع المجالات، لارتكازها على العدل والحرية والمساواة ولانقطاع المسلمين على اختلاف أجناسهم وتعدد أنسابهم إلى الاستيعاب والتفكير والابتكار والتصنيف، والتأليف والتعليم والتلقين والتثقيف.

ومضى على الانسانية ردح من الدهر سارت طواله في ظلال القرآن، وتحت راية الاسلام، سيراً ثابتاً موفقاً، وخطت فيه خطوات رشيدة مسددة، وأفادت خلاله الفوائد الصالحة الجمة وكسبت في أثنائه المكاسب



الجميلة الغزيرة، بيد أن المسلمين أتى عليهم حين من الدهر، تداعت في نفوسهم فضائل الايمان، وتضاءلت في قلوبهم محاسن الاسلام، وغابت عن أذهانهم وعقولهم تلك المبادىء والقيم التي صلح بها أولهم، فأخذ ذلك البنيان الشامخ الذي أقامته الأجيال الصالحة يتصدع شيئاً فشيئاً، وينهار يوماً على يوم، وتفرقت كلمتهم بعد اجتماع، فتبدد شملهم بعد ائتلاف واتحاد، وتقاسمتهم الأهواء، فانقسموا، وغلبت عليهم الشهوات، فغلبوا، وتوانوا وتواكلوا، ووهنوا وضعفوا واستكانوا، فخفت صوتهم، وخبا نورهم، وتقلص سلطانهم، وأدبرت دولتهم، وانحسر ما كان لهم من جاه ممدود، ونفوذ محمود، وانتقل ما كان لهم من شأن إلى غيرهم، وغدا ما كان لهم من قول مسموع، صادراً عن ألسنة من ناصبوهم العداء، وأخذوهم بالبأساء والضراء حتى أهانهم من كان زمنا طويلا غفلا بين الأمم غير موسوم، وخاملا غير ملحوظ ولا معلوم، وأصبحوا فريسة لأطماع الطامعين، ولقمة سائغة للغزاة المتربصين وبقي أمرهم على هذه الحال يعانون مرارة التفريط والتقصير، ويكابدون زمناً آلام العار والشنار، إلى أن قيض الله للأمة الاسلامية من استشار هممها، ودلها على الصراط المستقيم وأهاب بها إلى سلوك النهج القويم، ودعاها إلى استقبال ما استدبرته من أمر، وبعث في نفوسها الأمل، وأعاد إليها الثقة المفقودة، وحرك في قلوبها الايمان بالحق الضائع، وذكرها بالواجب المفروض فتحركت حيثما وجدت بقية من صلاح، والفيت جذوة من عزم واستقر نصيب من حب في فك الأغلال، وحظ من رغبة في التخلص من القيود والآصار، فلم تلبث التضحيات المبذولة هنا وهناك، والمساعي الحميدة في هذا القطر وذاك، أن آتت ثمارها المنشودة، وأسفرت عن نتائجها المحتومة، إلا أن الاستعمار لم يلق عصا التسيار، ولم يقنع من الغنيمة بالاياب. فأخذ يتقنع كل يوم بقناع ويتلون كل آونة بلون، ويكتسي حسب الظروف والأحوال كل حين بلباس، وفات المسلمين الذين استرجعوا ما سلبوا من حق، واستعادوا ما فقدوا من حرية، أن يواجهوا هذه المعركة الجديدة بقلب واحد، وإيمان جامع، واتحاد شامل، وعزيمة ماضية، لا سبيل إلى تفتيتها، وقوة شكيمة لا مجال لتشتيتها فسلكوا الطريق الهين اليسير، بدلا من سلوك النهج العسير، ولم يحكموا عقولهم وبصائرهم، ولم ينظروا في عواقب أمورهم النظر البعيد على الرغم من محاولة إيجاد تآلف بينهم وتضامن، وأورث الخلاف بينهم الضغائن والأحقاد والاحن، وخلف الحزازات، وأوغر الصدور.

ثم كانت النكبة التي لم يكونوا لها متوقعين، ولا لمصابها منتظرين، فامتحنوا امتحاناً غير يسير، وانتهكت الحرمات المقدسة، وحل بديارهم الشقاء والبلوى، وضامهم من لا عهد له ولا ذمام ولا ضمير بعدما اهدرت القيم المتواضع عليها ايما اهدار، وداس المبادىء المتفق عليها كل متغطرس جبار، وها هم العرب كافة، والمسلمون قاطبة يعانون من ويلات هذه النكبة ما يذيب القلوب كمدا ويفتت الأكباد لوعة وألما لا نصير لهم إلا الله اللطيف بعباده، ولا ظهير لهم إلا أن يتمسكوا بالعقيدة المثلى، والايمان الصادق، ويأخذوا بالمبادىء ويتشبثوا بالقيم التي جعلت منهم خير أمة أخرجت للناس «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات، ليستخلفنهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم. وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا».

فإذا آمن المسلمون، واتقوا وعملوا الصالحات، واجتنبوا ما نهوا عنه، وخلصت نياتهم، وسلمت طواياهم، وصحت عزائمهم، فإن من يتق الله يجعل له من أمره يسراً، وإن الله لا يخلف ما وعد به عباده العاملين للصالحات، والمؤمنين بما أوحى إلى نبيه الأمين من آيات بينات، سور محكمات، فكلما اجتمعت كلمة المسلمين على التقوى وصفت قلوبهم، واستهدفوا الخير والعمل والصالح، كان الله من ورائهم ظهيرا، ومعينا ونصيراً، وبلغوا أسنى الدرجات، وأجمل المقاصد والغايات، وكلما تفرقوا شيعا، وذهبوا طرائق قددا، وخذل بعضهم بعضاً، وتنكروا للمبادىء القومية التي قام على دعائمها صرح نهضتهم المنيف، وشامخ مجدهم التليد، وجد العدو المتربص بهم

الدوائر إلى صفوفهم مدخلا، وإلى قلوبهم سبيلا، والب بعضهم على بعض، وأحدث بينهم العداوة والبغضاء، والشقاق والشحناء، وأضعف قواهم، وفل غرب عزائمهم وصرفهم عن المقاصد والأغراض التي تستهوي النفوس الأبية، والعقول المتبصرة.

وتفادياً لاتساع الخرق ودرءاً للمكاره وحفظاً للكيان وصوناً للكرامة، وإمساكاً للمقاليد والزمام. وانتصاراً على المحن والشدائد، فإن علينا أن نرجع إلى أنفسنا محاسبين، ونتناول بالنقد والتمحيص ما نأتي من الأمور وما نذر، وما نبدىء فيه ونعيد، حتى لا يصدر عنا من الأعمال والأقوال ما يشين سلوكنا وتصرفاتنا من النقائص والعيوب التي ينكرها الاسلام، ويدينها محكم التنزيل والفرقان، فإن من شأن هذه النقائص والعيوب، ان تعرضنا لصروف الدهر وغيره، وفواجعه وأزماته.

وإننا لنستعيذ بالله في هذه الليلة المباركة التي هي سلام حتى مطلع الفجر، وفي هذا الاحتفال بأعظم حدث وأسماه، وأجله وأسناه، من كل نعمة يتلوها بطر، ومن كل جاه محفوف بمكروه غير مقرون بتبصر وحسن نظر، ولقد أوضح لنا الله في كتابه المبين، الطريق السوي والنهج اللاحب : (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون).

فاللهم إننا نعوذ بعزتك — لا إله إلا أنت — ان تضلنا ونسألك الهدى والتقي، ونستهديك لارشد أمرنا ونستجيرك من شر نفوسنا، اللهم لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم، اللهم إن عبادك الضارعين إليك المبتهلين إلى كرمك وجودك وعظمتك وجلالك في هذه الليلة الغراء التي شرفتها وخلدتها وجعلتها خيراً من ألف شهر، يسألونك الصلاح والرشاد، ويستوهبونك التوفيق والسداد، والنصر، والتمكين، والهداية في المهتدين، غير ضالين ولا مضلين.

اللهم إن عبادك الذين أمرتهم بالتوحيد يتوسلون إليك بسر قرآنك الكريم الذي يحتفلون اليوم في مشارق الأرض ومغاربها بذكرى تنزيله ووحيه أن تنعم وأنت خير من أنعم وجاد بلم شعثهم وجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم والتأليف بين قلوبهم وتطهير سرائرهم وتمتين عرى الايمان في نفوسهم وكشف بلواهم، وإذهاب الحزن عنهم، فإنك اللهم الملجأ والملاذ، والمفزع عند الملمات الشداد، ربنا اجعلنا من الذين قلت فيهم وقولك الحق : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا، ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون».

ألقي بالرباط

الخميس 26 رمضان 1387 — 28 دجنبر 1967